

دّواعي الأمل في نفوس شبابنا



◀ كيف نزرع الأمل؟ وكيف نصنعه؟

ذلك فنٌ لا يجيده كلٌ أحد.

وهو إيمان راسخ لا يمتلكه إلا المؤمنون بدينهم أو قضاياهم.

فالإيمان والأمل توأمان، ذلك أنَّ المؤمن لا يقع في اليأس حتى ولو تضاءلت أو انعدمت عوامل الأمل لديه، لأنَّ اليأس (كفر): (إِنَّمَا لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (يوسف/ 87). فالليأس إما شاكٌ بقدرة الله أو بعلمه، وكلاهما -كما يقول بعض المفسرين- كفر.

وإذا أردنا أن نعقد مقارنة سريعة بين ملامح (اليء) ولامح (الأمل) فيمكن أن نلتقي بالمعاني

التالية:

الأمل: إيمان، أمان، نور، ثقة، قوّة، حركة، حياة، مقاومة.

اليأس: كفر، خوف، ظلمة، فقدان للثقة، ضعف، جمود، موت، استسلام.

فما هي العوامل والدواعي التي تعزّز الأمل في نفوسنا كشباب وفتيات؟ وما هي العوامل التي تدعى إلى اليأس؟

1- المرحلة العمرية:

فمرحلة الشباب هي ربيع العمر، وهي مرحلة الأمل والتفاؤل لأنّها مرحلة الانفتاح على الحياة والمستقبل، وتحدّي المخاطر والصعوبات، وبالتالي فهي مرحلة الخصب والنمو والعطاء.

ولذلك يُفترض أن تغيب أو تسقط من قاموس الشباب المؤمن مفردات من قبيل: الإحباط، الفشل، الطريق المسود، اليأس، القنوط، التساؤم، التقوّع، الانكماش، انطفاء الجذوة، خمود الهمة، الانتكاسة.. وما شاكل، لتعلّم محلّها كلمات: التفاؤل، تكرار المحاولة، ربح المحاولة، إعادة الكرّة، صفحة جديدة، النهوض من جديد، العزم، الإصرار، الموافقة.. وما إلى هناك.

2- رؤية الإيجابي إلى جانب السلبي:

فالتركيز على السلبيات وحدها يعمّق معنى اليأس في النفس، فاليأس لا يرى سوى الظلمة والخيبة والخسران. إنّه كما هو الوصف التقريري للحالة: يرى النصف الفارغ من الكأس، أمّا المتفائل فهو الذي يرى النصف المملوء منه. فليس هناك سلبي مطلق لا يخلو من إيجابيات، وليس هناك إيجابي مطلق لا يخلو من سلبيات.. وتلك هي نسبية الحياة الدنيا في كلّ شؤونها وشجونها.

إنّ الذي يرى (الألطاف الخفية) وهي الإيجابيات غير المرئية لأيّ حدث أو مشكلة أو مصيبة.. إنسان يعيش الأمل.

والذي يرى في المتاعب والمآسي والابتلاءات وجوهاً أخرى غير وجوهها البائسة ويقول: "الخير فيما

وَقَعْ إِنْسَانٌ آمِلٌ يَحْمُلُ اسْتَعْدَاداً لِتَجَاوِزِ صَدْمَةِ اللَّهْظَةِ الْمُبَاشِرَةِ.

وَالَّذِي يَلْحَّ فِي طَلْبِ شَيْءٍ وَلَمْ يَحْصُلْ عَلَيْهِ، أَوْ تَأْخِيرٌ حَصْولِهِ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: "لَعْلَّ" الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي
هُوَ خَيْرٌ لِي لِعِلْمِهِ إِنَّ بِعْاقِبَةِ الْأَمْرِ" هُوَ الْآخِرُ إِنْسَانٌ يَرْفَضُ الْوَقْوَعَ فِي قِبَصَةِ الْيَأسِ.

-3 مَدَاوِلَةُ الْأَيَامِ:

فَدَوْمُ الْحَالِ -عَسْرًاً كَانَ أَوْ يَسِرًاً خَيْرًاً كَانَ أَوْ شَرًاً- مِنَ الْمُحَالِ. فَلَقَدْ شَاءَتْ سَنَّةٌ إِنَّ أَنْ يَقْلِبَ
الْأَيَامَ وَالْأَحْوَالَ (وَتَرْتَلِكَ الْأَيَّامَ نُدُدًا وَلُهُمَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران/ 140). وَلَذِكَ قَيْلَ:
"الْدَّهْرُ يَوْمَانِ، يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، إِنْ كَانَ لَكَ فَلَا تُبْطِرْ وَإِنْ كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ".

وَطَالَمَا أَنَّ السَّرَّاءَ لَا تَبْقَى وَالضَّرَّاءَ لَا تَدُومُ، فَلَنَا أَنْ نَأْمِلْ أَيَّامًاٌ هَانِئَةٌ طَيِّبَةٌ. فَلَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ
إِلَى رَسُولِهِ (ص) فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ كَانَتِ اللَّيْلَةُ (أَمْسِ) مِنْ أَشَدِ الْلَّيَالِي نَكَدًا عَلَيَّ- بِإِنْهُ بَأْرَسَهُ- بِإِنْهُ بَأْرَسَهُ- بِإِنْهُ بَأْرَسَهُ-
فَقَالَ لِهِ الرَّسُولُ (ص) مَا مَعْنَاهُ: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: أَقُولُ أَشَدَ الْلَّيَالِي، وَتَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ. فَقَالَ
لَهُ (ص): قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ مَضْتُ وَانْقَضْتُ، أَيْ لَمْ تَسْتَمِرْ لِتَحُوّلِ نَهَارِكَ التَّالِي إِلَى لَيلٍ آخَرَ مِنَ الْمَعَانَةِ.

فَهَذَا التَّحُوّلُ الْجَارِيُّ وَالْمُتَصَرِّفُ بِشَفَوْنِ النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ بَيْنَ سَعَادَةٍ وَشَقَاءٍ وَعَسْرٍ وَرَخَاءٍ، نِعْمَةٌ
مَجْهُولَةٌ، فَلَوْ أَدَارَ الَّذِي يَكَبِّدُ الْأَلَمَ عَيْنَهُ إِلَى الْوَرَاءِ لِرَأْيِ أَيَّامًاٌ بِيَمَاءٍ وَلِيَالِي سَعِيدَةٍ، وَسَتَأْتِي عَلَيْهِ
سَاعَاتٌ وَأَيَامٌ وَلِيَالِي يَخْفِيُّ فِيهَا الْأَلَمَ أَوْ يَزُولُ، كَمَا لَمَسَ ذَلِكَ بِالْتَّجْرِيبَةِ، فَلِيُسَ الْحَزْنُ بِدَائِمٍ وَلِيُسَ الْفَرَحُ
بِدَائِمٍ.

وَمَا يَدْرِيكَ فَلِلَّعْلَّ هَذَا الَّذِي تَشْتَكِي مِنْهُ قَدْ يَكُونُ قِيَاسًا بِأَوْقَاتِ لَاحِقَةِ أَشَدِ عَسْرَةِ، هِيَنَا لِيَنَا، أَوْ
يَبْدُو بِالْمَقَارِنَةِ مَعَ حَيَاةِ آخَرِينَ سَعِيدًا كَرِيمًا. وَلَقَدْ عَبَرَ أَحَدُ الشَّعْرَاءِ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ أَجْمَلَ تَعْبِيرَ
حِينَما قَالَ:

رَبِّيْ يَوْمَ بَكَيْتُ مِنْهُ فَلَّا مَا * * * * صَرَتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ!

فَالْأَيَامُ الْسَّوْدَاءُ قِيَاسًا بِالْأَيَامِ الْحَالَكَةِ السَّوْدَاءِ، تَعَدُّ فِي نَظَرِ الْمُتَفَاعِلِينَ أَيَّامًا مَحْتَمَلَةً، بَلْ
إِنَّهُمْ يَبْصُرُونَ شَعَاعَ الْأَمْلِ فِي كَبْدِ الْحَلَكَةِ وَأَحْشَاءِ الْطَّلَامِ، فَهُنَاكَ شَمْسٌ جَنِينِيَّةٌ تَمَرَّ بِمَرْحَلَةِ مَخَاضٍ سَتُولَدُ
عُمَّا قَرِيبٌ.

أي إنّهم وحسب التعبير النفسي "يمرون"ون أعينهم الداخلية على مشاهدة الأمل والاستمتاع به".

-4 المصائب إذا عمّت هانت:

الفرق بين الآملين واليائسين، أنّ الإنسان الذي يحيا الأمل تهون مصيّبته ويختفي ألمه ويهداً قلقه، خاصةً إذا تأمّل فيما حوله فرأى أنّ هناك مَن يشتكي مما يشتكي منه وربّما أكثر من شكواه. أمّا اليائس فلا يرى مصيبة في الكون سوى مصيّبته.

لقد عبرت الشاعرة (الخنساء) التي بكت أخاها (صخراً) زمناً طويلاً عن هذه الحالة بقولها:

ولو لا كثرة الباكين حولي *** على إخوانهم لقتلتُ نفسي

فحينما تصاب بألم وتنكب بنكبة، وتعاني من أزمة، أدر بصرك من حولك لترى أنّ المتألمين كُثر، وأنّ المنكوبين عدد لا يستهان به، وأنّ الدامعة عيونهم والمجرورة قلوبهم في ازدياد، بما ينسيك ما أنت فيه من همٌ أو غمٌ أو ألم.

-5 في الكون والحياة سنن فتأملها:

لقد سبق القول إنّ الله تعالى يداول الأيام، أي لا يتركها على حال أبداً، فكلّ يوم هو في شأن، وقد ينقل أحدنا من درجة الأشقياء إلى درجة السعداء، نتيجة عمل صالح يقوم به، أو كلمة طيبة يرجي بها رضاه.

ثمّ أنّ رحمته التي وسعت كلّ شيء، أزّه قريب من المحسنين، يقابل إحسانهم بإحسان أعظم منه، فهو سبحانه وتعالى حينما يحدّثنا عن نجاة يونس (ع) يقول: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّبْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبية/ 88). فقد تكون في قلب الحوت وتدركنا الرحمة، وفي قلب النار كإبراهيم (ع) وتدركنا الرحمة، ذلك أنّ (مَنْ يَتَّقَ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (الطلاق/ 3-2).

وقد ربط سبحانه بين تغييره لما بنا نحو الأفضل بتغييرنا لأنفسنا باتجاه الأفضل (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد/ 11).

فليست حياة المؤمن قدرًا مقدوراً .. وليس حياة الذل في قبضة الطالمين مصيراً محتملاً لا يمكن تغييره .. وليس الفقر عاهة مستديمة لا يمكن علاجها، وصادق هو الشاعر الذي يقول:

إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة **** فلا بد أن يستجيب القدر

ولابد للليل أن ينجلِي *** ولا بد للقيد أن ينكسر

ولقد شاءت حكمته وإرادته سبحانه وتعالى أن يجعل اليسر رفيقاً للعسر (فَإِنْ - مَعَ الْعُسْرِ - يُسْرٌ) * إِنْ - مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ) (الشح/ 5-6). فراحة مع تعب، وعاافية مع مرض، ورزق مع ضيق، ونجاح مع فشل، ونصر مع هزيمة.

وقد لا نرى هذا اليسر بأمّ أعيننا، فقد يكون لطفاً خفيّاً، ونعمه غير مرئية، وقد تكشف الأيام بعض أو كل ذلك اللطف الذي عبد عنه القرآن بالنعم الطاهرة والباطنة.

وبناءً على ذلك كلامه، كان من بين وسائل التسلّح بالأمل (الصبر) الذي يأتي بالنتائج الطيبة "مَنْ صَبَرَ طَفْرَ وَمَنْ لَجَ كَفَرَ". فالدعوة إلى الصبر على المصيبة (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنْ - ذَلِكَ مَنْ عَزْمَ الْأَمْوَارِ) (لقمان/ 17). والاعتقاد بأنّه يملكنا وهو قادر في أيّة لحظة أن يهلكنا (إِنَّمَا لِلَّهِ وَإِنَّمَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة/ 156). كل ذلك يهون وقع المصائب ويخفف كثيراً من وطأتها علينا.

- 6 -
الاطمئنان بالوعد الإلهي:

وعد الله المؤمنين والصالحين والمتقين والعاملين وعدواً كثيرة، وهو في كلّ ما وعد صادق الوعد (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلَاءِ) (النساء/ 122). والتأمّل في هذه الوعود يزرع في النفوس أحجار الأمل الطليلة.

فحينما نقرأ قوله (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الْمُذْكُونَ آمَدُوا) (الحج/ 38)، وقوله: (إِنْ تَأْذِنُوا اللَّهَ يَأْذِنُكُمْ وَيَتَبَرَّتُ أَقْدَامَكُمْ) (محمد/ 7)، وقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الْمَذْكُونَ آمَدُوا مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلُفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُوا الْمُذْكُونَ مِنْهُمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْتَهُمْ

إلاّ أن نعيش في بحبوحة أمل دائم لا يزول ومشرق لا يأفل.

- 7 -

لا تجد في الآملين إنساناً يعيش الثقة برحمة الله، وكيف يقنط والرحيم يقول له: (قوله) إنما
عَبَادَيَ الرَّذْنَ - أَسْرَرَ فُوَا عَلَى أَزْفُسْهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا (الزمر/ 53)؟ وكيف يبأس وهناك أبواب للرحمة مشروعة في
الليل وفي النهار؟ فيباب للتنوية، وباب للمغفرة، وباب لاستجابة الدعاء.

إنّ ما هو أشدّ من اليأس نفسه، اليأس من رحمة الله التي كتبها على نفسه، والتي يتطاول لها عنق إبليس يوم القيمة، ولذا جاء في الحديث الشريف: "يبعث المقدّطون يوم القيمة مغلّبة وجوهم - يعني بذلك غلبة السّواد على البياض- فيُقال لهم: هؤلاء المقدّطون من رحمة الله".

إن^٣ رحمة الله تعالى تداوى به الأمراض التي يعجز الأطباء عن علاجها.

وإن رحمته قوّة يستمد منها الضعفاء معاني الصبر والفرح والخلاص.

وهي أمن يتنزّل على القلوب الخائفة الهلعة، فيغمرها بالطمأنينة والسكينة، وهي مغفرة تنتظر التأبين المستغفرين العائدین لتكفیر عنهم سیئاتهم. وبالتالي فهي أمل.

جاء في (نهج البلاغة) عن عليٌّ (ع): "ألا أخبركُم بالفقير حقًا؟ الفقير كلٌّ الفقير مَنْ لم يقدر طالب الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يؤيدهم من روح الله".

والفقـيـه هنا العـالـم.. الـذـي يـعـلـم سـعـة رـحـمـة إـلـه وـيـعـلـمـها النـاسـ.

- 8 كل يوم هو صفحة جديدة:

فـكما أـن النـهـار يـتـجـدـد بـشـرـوقـ شـمـسـ يـوـمـ آـخـرـ.. تـضـعـ نـهـاـيـةـ لـلـلـلـيـلـ المـخـيـّـمـ بـسـوـادـهـ، فـكـذـلـكـ يـمـكـنـ أـنـ

نَعْلَمُ الدرس من ابتسامة الشروق.. فكل يوم حادث جديد.. وصفحة لم تدشن بعد.. تحمل في طيابتها
أمراً جديداً.

فكم مذماً مَن يعاني من أزمة يبيت وهو يأمل الفرج في صبيحة اليوم التالي، وكم مذماً مَن تؤرقه مشكلة، وإذا بنهاри اليوم الجديد يبدد قلقه ويجعله ينطلق بوضع نفسيٌّ أفضل، وقدرة على المواجهة أكبر.

إنَّ ابتسامة الشروق تقول لكلٍّ واحد مذماً: أزح عن وجهك كآبة الليل وسحابة التشاؤم.. فأنت ابن اليوم المشرق الجديد.. انظر إلى الأزهار في تفتحها كأنَّها مولودة للتو.. واستمع للعصافير في شدوها فكأنَّها تشدو لأول مرّة، وتأمل في حركة الحياة المتداقة التي ترفض السكون وإنَّما تأسنت كالمياه في البركة الراكدة، وكن مع الشاعر الذي يقول:

أُعْلَمُ الذِّفَسَ بِالْأَمَالِ أَرْقِبَهَا *** مَا أَضْيَقَ الْعِيشَ لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَالِ

- 9 - التفاؤل بالخير:

إنَّ مقولة "تفاءلوا بالخير تجدوه" ليست مخدراً نفسياً.. ولا جبيرة لخواطر كسيرة، وإنَّما هي إيمان يستند إلى أساس، فهي نوع من أنواع الإيحاء الذاتي، ذلك أنَّ النفس كما الطفل، أواح لها بالألم تتألم، وأواح لها بالبهجة تبتهر.

ولكن كيف يجد الخير المتفائل بالخير؟

إنَّه ينطلق من روحية الأمل التي تُبَدِّد الأوهام وتُذَلِّل العقبات، فيقول المتفائل بالخير: سأنجح في الامتحان الذي أنا مقبلٌ عليه.. استعدادي جيد.. سأتغلّب على المشكلة التي واجهتني بالأمس.. لدي أكثر من حل.. لقد رجوت أَنْ في هذا الأمر ولم يسبق أن طلبت منه فخذلني.. على أيّة حال.. أنا موظفٌ نفسي لأيِّ احتمال..وها هي ابتسامة الثقة تشرقُ بها روحي على شفتي.. توكلت على الله فهو حسبي..

هذه الطريقة بالإيحاء هي التي تدعو إلى التفاؤل، فالتفاؤل ليس حركة في الفراغ، وإنَّما هو حركة تستند إلى أساس.

وبعكس ذلك المتطيّر المتشائم، فهو يوحى لنفسه بكلّ ما هو سلبي قاتم، فحتى لو كان على استعداد جيد لخوض الامتحان، فإنّه يقول: لا اعتقد أزّني سأنجح.. أنا أعرف حظّي العاشر.. الفشل حليفي.. ستكون الأسئلة صعبة لا أقدر على الإجابة عنها.. وبذلك يُضعف عزمه ويبديّع ما لديه من إمكانية، ويرتكب في أثناء أداء الامتحان حتى ليفشل فعلاً.

الاطمئنان بالجزاء والمكافأة:

- 10

كلّ عمل نبذل جهداً جهيداً لإنجازه وإبداعه، وكلّ هدفٍ نسعى لبلوغه، يحتاج إلى قدر كبير من التفكير والتعب والقلق والجهد وربّما تطلب التضحية بأوقات الراحة والترويح وبأمور مهمة، لكنّنا ونحن نعاني من إرهاق الأعصاب وإجهاد الجسد نستشعر راحة لذذة بما سيتحقق على أيدينا، وحينما ترى أعمالنا النور، تبدي كلّ الأتعاب التي تقف وراءها، ويحل محلها شعور عميق بالراحة.

وقل الشيء نفسه عن الآخرة، فإنّ أعمالنا الصالحة قد تكلّفنا في الحياة الدنيا وقتاً طويلاً، ومشقة كبيرة، وأذى نفسياً، وآلاماً مبرّحة.. وربّما تكلّفنا حياتنا، لكنّ ما يدعونا إلى التفاؤل والأمل والرجاء الواسع أنّ ثمّة جزاء عظيماً ومكافأة كبرى تقف في إنتظارنا وهي الجنّة ورسانا الله سبحانه وتعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ طَمَأْنَانٌ وَلَا نَصَابٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ [1] فِي سَبَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغْرِيُهُ الْكُفَّارُ وَلَا يَنْتَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ وَلَا زَيْلًا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (التوبة/ 120).

(وَلَا يُنْدُفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيرًا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ لَيْلَةٌ نَّيَّرٌ يَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (التوبة/ 121).

وجاء في الحديث: "مَنْ وَثَقَ بِالمَكَافَأَةِ أَجَادَ الْعَمَلَ" ، وقيل أيضاً: ذهب العناد وبقي الأجر، فالكافأة مادّية كانت أم معنوية تحفّف من الآلام والمتاعب وتبعث على النشاط والتحمّل، وتغرس في القلوب المؤمنة بالأمل.

فحينما مرّ رسول الله (ص) بآل ياسر، في مطلع الدعوة الإسلامية.. ورأهم يعذّبون على أيدي عتاة المشركين خاطبهم بالقول: "صبراً آل ياسر إنّ موعدكم الجنّة" ليزرع في نفوسهم المثقلة بالأمل أنّ العذاب مهما كان شديداً فهو مؤقت، وأنّ النعيم المقيم في انتظارهم وسيقدّمون عليه قريباً.

الإرادة القوية:

أصحاب الإرادة القوية متفائلون دائمًا.. آملون دائمًا.. راجون دائمًا.. وليس تفاؤلهم وأملهم ورجاؤهم من وحي الأحلام والتمنّيات، وإنّما هو نابع من استعداد نفسي وروحي عاليٍ لتحمل النتائج والتبعات من جهة، وتقدير صائب للأمور "مَنْ فَكَرَ قَبْلَ الْعَمَلِ كَثُرَ صَوَابَهُ"، وقدرة كاملة على إعطاء العمل أفضل ما يملكون من خبرة وطاقة تجربة، من جهة ثانية. وهل يحتاج الأمل حتى ينمو ويترعرع أكثر من ذلك؟

الأمل إذاً حلّيف الإرادات الصلبة والمقاومة العنيفة والأناة والصبر والجلد، والتصميم العازم على نيل الشيء أو بلوغ الهدف.

عدم الالتفات إلى المثبت طين:

في منعطف كلّ طريق تجدهم.. يقفون لك بالمرصاد، وكأنّ لا همّ ولا عمل لديهم سوى أن يزرعوا طريق الآملين بالألغام والأشواك.. أشواك الشك والريبة والبلبلة وزعزعة الثقة بما يأملون: (الْأَذْيَنَ
قَالُوا لِخُوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (آل عمران/ 168).

هؤلاء يزرعون.. ولكن ماذا يزرعون؟!

إنّهم يزرعون التشكيك بجدوى هذا العمل أو ذاك المشروع، وربّما يضربون لك المثل بعمل آخر فاشل حتى يقنعوك بلا جدوى ما أنت مقدم عليه.

ويزرعون الطلام حتى في طريق النور، الطرق مسدودة.. الفرص معدومة.. الظروف خانقة.. المحاولات يا نسة.. التجارب السابقة أثبتت ذلك.. وما إلى ذلك.

ويزرعون الخيبة المطلقة في كلّ شيء، فكلّ شيء فاسد، وكلّ شيء سيدّئ، وكلّ شيء رديء، وكلّ عامل منافق، وكلّ مخلص انتهازي.. وهلمّ جراً.

وعلاوة على ذلك، فإنّهم يصوّرون أنفسهم على أنّهم الواقعيون وأنّ المثالبي، وكأنّ من طبع

وبخلاف ذلك، فإنّ صحبة المتفائلين الراجين المؤمّلين تكسبك روحًا متفائلاً ونفساً مشرقة، وعزمًا أكيداً، فالطبع يستمدّ من الطبع، والتفاؤل يجرّ إلى التفاؤل، كما أنّ اليأس يحتذب اليأس.

ولذلك.. إنّ هدفك قدماً.. آملًا.. متفائلاً.. راجياً.. واثقاً، ولا تُعرِّ المثبطين التفادة واحدة.

يقولون.. ماذا يقولون؟.. دعهم يقولوا.

التعايش مع الأمر الواقع:

-13

قد تجد صنفًا من الناس لا يدعو حالهم إلى الأمل والتفاؤل، لكنّك ترى أنّهم متفائلون تعمّر صدورهم بأمل كبير.

من هؤلاء بعض المسنين الذين أوشكوا أن يودّعوا الدار الدنيا.

فالمسنون الإلهيون: "الذين يتبعون مدرسة الأنبياء (ع) ويؤمنون بالمبدا والمعداد، هؤلاء لا يمدون باليأس أبداً، لأنّهم خلقوا للحياة الأبدية الآخرة، ولن ينقرضوا بالموت، وإنّما ينتقلون من عالم الطبيعة إلى عالم آخر ويبداون حياة جديدة. فهؤلاء رغم أنّهم يفقدون فعالياتهم الجسمية والدنيوية، إلا أنّهم من الناحية المعنوية لن يتعرّضوا لأيّ توقفٍ وركود، ولن يتركوا السعي لنيل السمو المعنوي والتكافل الروحي.. إنّهم يستفيدون من كلّ يوم من أيام الشيخوخة.. يستغفرون من الذنوب.. ويؤدّون حقوق الآخرين.. ويقومون بالفرائض الدينية بالمستحبات منها أيضًا، ولا يتربّون الواجبات الأخلاقية، وبذا ينالون رضا الله -جلّه- عظمته. كما إنّ قلوبهم تطمئن بذكر الله [2].

ومثلهم المصابون بعاهات بدنية، أيّاً كان سبب أو شكل عاهاتهم، فلهم عايش بعض المكتوفين والصمّ وأصحاب اليد الواحدة أو العين الواحدة أو الرجل الواحدة أو الذين بلا رجلين ولا يدين، عاهاتهم فنسوها أو تناسواها ليكبر الأمل في حنایا صدورهم، ويقدّموا لأنفسهم وللحياة أشياء جميلة ونافعة أيضًا.

فلقد أخبر الأطباء عضوة في الحزب الديمقراطي الأميركي بأذنها معابة بسرطان العظام، ومع ذلك بقيت تمارس حياتها بشكل طبيعي.. وتقول في ذلك: "إذْنِي أخرج كلّ يوم إلى عملي ولا أدرى هل سأعود إلى منزلي أم لا... إذْنِي أمارس حياتي الطبيعية وكأنّ شيئاً لم يستجدّ في حياتي".

ولو استسلم الممسن لشيخوخته، والمربيص لمرضه، والمصاب بعاهة لعاهته، لما بُرِزَ علماء وأدباء ورسامون وفنانون وفلاسفة بارعون، رغم ما يعانونه من بعض ذلك أو كله.

هذه هي زراعة الأمل.. وهذه هي صناعته.

ولذلك، فمن المنصوح به أن نقرأ سير العلماء والرجال العظام والنساء العظيمات، والمشاھير من هؤلاء وهؤلاء، ليرى شبابنا وفتياتنا كيف لعب الأمل دوراً كبيراً في صياغة شخصياتهم التي يُضرب بها المثل.

العمل بالتكليف الشرعي:

-14

في الأجواء الملبدة بالتشاؤم والقنوط والأياس، قد تلتقي بآناس يعملون ويكافحون ويدعون إلى الله ويا مرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وتسألهما: لماذا لم تقعوا في هوة اليأس كما وقع الآخرون؟ فيجيبون: نحن إذنما نعمل بتتكليفنا الشرعي.

هؤلاء هم المتفائلون الآملون حقاً.

فهم يرون أن كلّفهم بمسؤوليات شرعية لا تسقط عنهم إلا في حدود وظروف وشروط معينة ليس اليأس منها بالتأكيد، وسوء وفّقوا في أداء أعمالهم، أو لم يوفّقوا فإن لسان حالهم يقول: (معدرة إلى ربكم ولعلهم يتدفقون) (الأعراف/ 36).

فما بهم هؤلاء هو العمل وليس الأرباح الآنية والمنافع الدنيوية (وما عِنْدَهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الشورى/ 36). (وَالْبَأْقِيَاتُ الصالحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلَى) (الكهف/ 46). إذنهم يقولون: المهم أن نرحل من هذه الحياة وقد قمنا بواجباتنا على قدر ما نستطيع.

وقال قائلهم:

على المرء أن يسعى بمقدار جهده *** وليس عليه أن يكون موفقا

فإذا عرفت تكليفك الشرعي وعملت بموجبه، فأنت آمل متفائل راجٍ حققت أو لم تحقق النتائج المرجوّة.

شرارة الزّ من:

- 15

فالزّ من عامل من عوامل انتعاش الأمل وازدهاره، فمن يزرع اليوم قد لا يحصد غداً، بل قد يحتاج إلى وقت طويلا حتى يحين موعد الحصاد. وإذا عرفنا أنّ لكلّ زرع موسم حصاد قد يطول وقد يقصر، فإنّ علينا أن لا نتعجل الثمرة، فقطف الثمار قبل نضوجها يجعلنا لا نحصل إلّا على الفجّ منها.

في بعض السجناء والمنفيين لا يعدمون الأمل بالخلاص، والعودة إلى أوطانهم وأهليهم حتى ولو امتدّ الزمن طويلاً [3].

وربّما احتاجت بعض الثورات سنين أطول حتى تندلع الشرارة من جديد [4].

وربّما تطلّب تساقط الحكم الطواغيت مدة طويلة حتى تهب الشعوب للإطاحة بهم [5].

وربّما استغرق لقاء شعوب فصلت بينها السياسات الجائرة أعماراً طويلاً [6].

وكما على مستوى الشعوب فكذلك على المستوى الفردي، فقد لا يتحقق بعض ما تأمّل إلّا بعد وقت طويل.

إنّه الإنتظار الطويل، والكبح المريض، والمعاناة القاسية، والتضحيات الجسيمة، لكنّه الأمل يتحدّث عنه الشاعر المتفائل بقوله:

وقد يجمع الله الشّتيتين بعدما يُظْنَان كلّ الظنّ لا تلقيا ▶

[1] - الظماء: شدّة العطش، والذّصب: شدّة التّعب، والمهممة: شدّة الجوع.

[2] - أنظر (الأفكار والرغبات بين الشيوخ والشباب)، محمد تقي فلوفي.

[3] - كما في سقوط الشاه في إيران، وماركوس في الفلبين، وشاوشيسكو في رومانيا، وسلوبودان ميلوشوفيتش في يوغسلافيا.

-
فيعد ما يُقارب ربع القرن من السجن، يُفرج عن زعيم الأفارقة في جنوب أفريقيا (نيلسون ما نديلا) ليحكم بلاده التي كانت محاكمة للتمييز العنصري.

[5] - فيبعد نصف قرن من إحتلال فلسطين وبيت المقدس، يهرب شبابها وفتياها وأطفالها وفتياتها لتحرير الأرض والإنسان من قبضة الإحتلال.

[6] - كما في لقاء الأهل في الألمازيتين بعد سقوط جدار برلين، وكما في لقاء الأهل في الكوريتين الشمالية والجنوبية.